

محطم الأيقونات صاحب الرسالة

كاميلا لوند أندرسن تقدم لمحة
عن شخصية ريكاردو هاوسمن
الذي كرس حياته للكشف عن القوى
الدافعة للتنمية الاقتصادية



طوال

نحو أربعين عاما أمضاها متنقلا بين المؤسسات الحكومية والأوساط الأكاديمية والمؤسسات المالية الدولية، واصل ريكاردو هاوسمن سعيه الدؤوب لاكتشاف السبب وراء نجاح بعض البلدان وإخفاق بعضها الآخر. التنمية بالنسبة له تحاكي لعبة "سكرابل". وقد فسر هذه الرؤية حين التقيناه في مكتبه المُشمس في كلية كينيدي للحكم التابعة لجامعة هارفارد، فقال: "الواقع أن التنمية هي عملية تجميع للحروف وبحث عن كلمات جديدة يمكن تجميعها معا. وهذا هو سهم التنمية". وأضاف أن هذا الشغف باكتشاف القوى الدافعة للتنمية لا يغيب عن التجارب العديدة التي شكلت حياته المهنية. "لم أفكر يوما في أن لي حيوات مهنية مختلفة، إنما كنت أرى دائما أنني أمارس نفس اللعبة ولكن في وظائف مختلفة".

التغلب على القيود الملزمة

ويشغل هاوسمن منصب مدير مركز هارفارد للتنمية الدولية منذ عام ٢٠٠٥، ويعمل أستاذا للممارسة التنمية الاقتصادية منذ عام ٢٠٠٠. وقد استغل وقته في هارفارد لصقل أفكاره عن النمو الاقتصادي والقيود التي تكبله — أي أكبر عقبة أو عقبتين تواجهان النمو في أي بلد. وهو يعمل بشكل مباشر مع الحكومات في جميع أنحاء العالم لمساعدتها على تحديد مصادر النمو الجديد.

ويوضح هاوسمن: "كنت منزعجا للغاية من الصعوبة البالغة التي تواجه معظم الناس في العثور على نماذج عمل ناجحة. ومعظم البلدان التي أعرفها ارتبط تاريخها ارتباطا وثيقا بصناعة واحدة عثرت عليها مصادفة وأحدثت تحولا في اقتصادها — سواء في ذلك صناعة البن أو الكاكاو أو النفط أو السياحة".

ولاستجلاء الدافع وراء هذه الخيارات، أنشأ هاوسمن في عام ٢٠٠٥ منهجية لتشخيص النمو بالتعاون مع زميلين من خبراء الاقتصاد ومن جامعة هارفارد، هما داني رودريك وأندريس فيلاسكو. والفكرة الأساسية هي أن كل بلد ربما يكون في صدام مع قيوده المتفرقة التي يتعين تفسيرها والتعامل معها. ويقول لانت بريتشيت، أستاذ ممارسة التنمية الدولية في كلية كينيدي وأحد أصدقاء وزملاء هاوسمن إن "منهج تشخيص النمو الذي كان من رواده هو مزيج عظيم تجتمع فيه المهارة الفنية مع أداة عملية من أدوات السياسة". وقد جاء العمل المتعلق بالتنمية نتاجا لحوار كان قد بدأ منذ سنوات عدة في فنزويلا. يقول رودريك: "التقيت ريكاردو لأول مرة في مؤتمر عن الدين الخارجي عقد في كاراكاس في الثمانينات. وقد اصطحبني في جولة طويلة في شوارع كاراكاس لم يتوقف أثناءها عن الحديث — عن علم الاقتصاد والمؤسسات والتنمية، وكل ما كنا جميعا نخطئ فهمه. وأتذكر أنني تساءلت في نفسي آنذاك: عن أي شيء يتحدث هذا الرجل؟ واستغرق الأمر بعض الوقت حتى

أدركت أنه كان بصدد أمر مهم فعلاً. وطوال السنين التالية، لم يتوقف عن محادثتي — وقد استفدت منه كثيرا. فهو شخص متفرد في مهنته في الجمع بين اللمسة البراغماتية لصانع السياسة وسعي الباحث الحثيث للتوصل إلى الأفكار الكبرى. وأرى أن المساهمة في إلحاقه بكلية كينيدي هو واحد من أعظم إنجازاتي".

والواقع أن منهجية تشخيص النمو هي مثال لمنهج هاوسمن العام في التعامل مع علم الاقتصاد، حيث يتجاوز دائما حدود النظرية لمقارنة علم الاقتصاد بالواقع. ويقول بريتشيت إن "ريكاردو لا يتشتت ذهنه بسبب انخراطه المستمر في معمعة الاقتصادات وصنع السياسات الحقيقية، إنما يشكل هذا الانخراط مصدرا لرؤى جديدة وعميقة عن علم الاقتصاد. فهو بارع في تتبع الحقائق عن أي اقتصاد، حتى في الحالات التي يتوه فيها الطريق بسبب الدوغما، يسارية كانت أم يمينية".

ولأن هاوسمن لم يتورع قط عن التجوال من تخصص إلى آخر بحثا عن منهجيات جديدة يحل بها المشكلات، نجده قليل التحمل للتقليدية المتشددة والافتقار إلى الفضول الفكري. وعن هذا يقول: "أعتقد أن علم الاقتصاد الجيد يكون مدفوعا بمحاولة الفهم، وامتلاك زمام المشكلة". ويضيف: "وغالبا ما يكون الاقتصاد الأكاديمي كمن يصنع المطارق بحثا عن المسامير".

وحياة هاوسمن العملية تتلخص في عبور الحدود وتجربة المناهج المختلفة بحثا عن إجابات للأسئلة الصعبة. ويقول عنه دويغو غوفين، وهو طالب سابق وزميل باحث عمل معه في مركز التنمية الدولية ويعمل حاليا في وزارة الخزانة التركية، "إنه يستخدم أدوات الاقتصاد الكلي والاقتصاد الجزئي والاقتصاد القياسي والعلوم المالية وعلم الاجتماع والتاريخ والفلسفة وعلم النفس والفيزياء وحتى الهندسة الكسورية، فيجمع بين تلك التخصصات المختلفة ويؤلف بينها بطريقة بديعة الانسجام ليخلق أطره التحليلية الفريدة".

التأثير

وإذا تتبعنا السبب وراء سعي هاوسمن الدائم وراء الإجابات، سنجد أنه يمكن إرجاعها إلى فنزويلا حيث استقر والداه بعد النجاة من المحرقة النازية ومغادرة ألمانيا وبلجيكا. فقد كانا يتعيشان من إنتاج المحافظ الجلدية، ولكن عندما انتقلت صناعة الملابس من فنزويلا في التسعينات إلى أماكن أخرى أقل تكلفة أصبح السؤال الملح هو "كيف سنعيش إذا اضطررنا لبيع مصنع الملابس؟ نحن لا نجيد إلا هذه الصناعة".

وقد دفعته معضلة والديه إلى التفكير مليا في دور رأس المال البشري في التنمية. يقول هاوسمن "ركزت على فكرة أن عملية التنمية هي في الحقيقة عملية لجعل السكان يتقنون قدرات إنتاجية تزداد تنوعا ومن ثم يمكن إعادة تجميعها وإعادة تنظيمها حسب الحاجة". وهكذا أصبح استكشاف دور

المتقدمة التعامل معها بسهولة، مما يفسر في رأيهما تكرار عجز بعض البلدان عن سداد الديون.

والحقيقة أن دراسته الفيزياء ألهمته أن يبتكر مصطلحا جاذبا للانتباه – هو "المادة السوداء" – لحل لغز في الاحصاءات المالية العالمية يتمثل في قدرة الولايات المتحدة، أكبر مدين في العالم، على تحقيق عائد على أصولها الخارجية أكبر مما تدفع من فوائد على الدين. وفي دراسة صدرت في عام ٢٠٠٥ – بعنوان "الولايات المتحدة والاختلالات العالمية: هل بمقدور المادة السوداء منع حدوث انفجار عظيم" (US and Global Imbalances: Can Dark Matter Prevent a Big Bang?) – استخدم هاوسمن وفيدريكو ستورزينيغر (الرئيس الحالي للبنك المركزي الأرجنتيني) مصطلح "المادة السوداء" لوصف الأصول غير المنظورة، مثل الاستثمار الأجنبي المباشر وغيره من أنواع الخبرة الفنية المصدرّة التي تولد دخلا كافيا لموازنة الفائدة التي تدفعها الولايات المتحدة للدائنين الأجانب. وفي علم الفيزياء، لا يمكن ملاحظة المادة السوداء إلا عن طريق ما تُحدّثه من جذب ثقالي. وفي الإحصاءات المالية الدولية، لا يمكن الاستدلال على وجودها إلا عن طريق الدخل الذي يتولد عنها.

وكما هو الحال مع الخطيئة الأصلية، أثارت فرضية المادة السوداء جدلا حادا لا يزال مستمرا حتى اليوم.

من واشنطن إلى بوسطن

وأثناء فترة عمل هاوسمن في بنك التنمية للبلدان الأمريكية، شارك أيضا في تعريف ما يسمى "توافق واشنطن" – وهو عشر صفات للسياسة الاقتصادية أصبحت تشكل حزمة الإصلاحات النموذجية للاقتصادات التي تمر بأزمة، ولكنها قوبلت بانتقادات واسعة منذ ذلك الحين. وقد حضر هاوسمن حلقة النقاش التي وصف فيها الخبير الاقتصادي جون ويليامسن "توافق واشنطن" للمرة الأولى، وساهم بفصل عن أمريكا اللاتينية في الكتاب الذي ألفه ويليامسن. وعن هذا يقول: "من ناحية ما، كان "توافق واشنطن" بمثابة توافق لأمريكا اللاتينية حول مجموعة اختلالات خاصة للغاية".

ولكن بمرور الوقت، تزايدت شكوك هاوسمن في قدرة هذه السياسات على تحقيق النتائج التي تنبأت بها النظرية الاقتصادية. وكان هناك بعض الارتباط الإيجابي، بمعنى أن البلدان التي نفذت الإصلاحات كان أداءها أفضل شيئا ما من أداء البلدان التي لم تفعل. غير أن الأزمات المالية التي أصابت آسيا وروسيا امتدت إلى أمريكا اللاتينية في أواخر التسعينات، مما تسبب في تراجع النمو في الفترة من عام ١٩٩٨ إلى عام ٢٠٠٢.

ويعلق هاوسمن فيقول: "دفعني هذا لإعادة التفكير. فربما كان النمو ينطوي على أمور أكثر مما كنت أعتقد في البداية". ويضيف: "كنا نعثر مصادفة على أمور مانعة

رأس المال البشري في عملية التنمية هو القوة الدافعة في حياته الأكاديمية.

وكانت الدرجة الجامعية الأولى التي حصل عليها هاوسمن هي بكالوريوس الهندسة والفيزياء التطبيقية من جامعة كورنيل. إلا أنه ترك الفيزياء والهندسة واتجه إلى العلوم الاجتماعية. ويقول "لم تكن دراسة الإلكترونيات في فنزويلا مثيرة بقدر دراسة الاقتصاد الفنزويلي، لأن الإلكترونيات لا تتغير في كل أنحاء العالم، وهو ما لا ينطبق على الاقتصاد".

وبعد حصوله على درجتي الماجستير والدكتوراه في الاقتصاد أيضا من جامعة كورنيل، عاد إلى فنزويلا لتدريس الاقتصاد. وفي عام ١٩٨٤، بدأ تقديم الخدمات الاستشارية لعدد من الوزارات، وفي عام ١٩٩٢ عُين وزيرا للتسويق والتخطيط كما كان عضوا في مجلس إدارة البنك المركزي. وفي عام ١٩٩٤، توجه إلى واشنطن العاصمة ليصبح أول كبير للاقتصاديين في بنك التنمية للبلدان الأمريكية.

الخطيئة الأصلية والمادة السوداء

وخلال السنوات الست التي عمل فيها هاوسمن كبيرا للاقتصاديين، ظل يتأمل تجربة فنزويلا – التي يشترك فيها العديد من بلدان أمريكا اللاتينية. وكان يتساءل: لماذا تعرّض الاقتصاد لهذا التقلب المزمن؟ وبالتعاون مع مايكل غافين وإرنستو تالفي وروبرتو بيروتي، استكشف الأسباب وراء ما أبدته سياسة المالية العامة من مسايرة دائمة للاتجاهات الدورية؛ فبدلا من تحقيق الاستقرار في الدورة الاقتصادية، كانت هذه السياسة تعمق الانكماش وتغذي الانتعاش. وبعد دراسة هاوسمن وزملاؤه لدورية المالية العامة، خلصوا إلى أن بعض البلدان تعتمد هذه السياسات لأن قدرتها على الاقتراض تتوافق مع الاتجاهات الدورية أيضا؛ فيمقدورها دخول الأسواق في أوقات اليسر فقط وليس في أوقات العسر.

وقد ابتكر هاوسمن وباري آيكنغرين مصطلح "الخطيئة الأصلية" لوصف حالة البلد الذي لا يمكنه الاقتراض من الخارج بعملة المحلية ولكنه يستطيع ذلك بعملة أجنبية مثل الدولار. وإذا تراكمت الديون الخارجية على بلد يعاني الخطيئة الأصلية، على غرار الاقتصادات النامية التي تُراكم الديون لتحفيز التنمية والنمو، يواجه هذا البلد حالة من عدم الاتساق بين العملات في ميزانيته العمومية، فترفع تكلفة خدمة الدين حين تفقد عملته قيمتها، مما يقوده في الغالب إلى العجز عن السداد.

وقد قوبلت نظرية هاوسمن عن الخطيئة الأصلية بالمعارضة من اقتصاديين مثل كارمن راينهارت وكينيث روغوف اللذين لم يرجعا مشكلات الديون إلى عدم اتساق العملات، وإنما ذهبوا إلى أن مشكلة اقتصادات الأسواق الصاعدة هي "عدم القدرة على تحمل الديون"، أي عدم القدرة على التعامل مع مستويات الدين التي تستطيع الاقتصادات

وربما تكون قمة المفارقة أن فنزويلا، وهي مسقط رأس رائد التنمية، في أسوأ هبوط اقتصادي تشهده منذ عقود، مصحوبا بتضخم مفرط. ويصف هاوسمن حالة بلده بصراحة شديدة فيقول: "لا توجد أعداء تبرر تراجع فنزويلا الكارثي. إنه نتيجة اعتماد سياسات يعرف العالم، بل ويعرف الجميع بلا استثناء، أنها لا تؤتي أي ثمار. وسواء بالنسبة لتعدد أسعار الصرف أو الافتقار إلى الانضباط المالي أو عمليات نزع الملكية أو عدم اليقين بشأن حقوق الملكية أو تراخي السياسة النقدية أو القيود السعرية، فكلنا يعلم أن هذه الأمور تدمر المجتمع." وبسبب هذا الانتقاد الصريح، أعلنت الحكومة أنه لم يُعد مُرَحَّبًا به في فنزويلا. ولم يثنه هذا عن عزمه، فاستمر في

للتقدم لم تكن قد خطرت لنا من قبل. وجاء هذا بالتزامن مع انتقاله إلى هارفارد."

ومع تجدد البحث عن إجابات، وصل هاوسمن إلى مفهوم "تعقّد الاقتصاد" الذي ورد للمرة الأولى في مقال نشرته مجلة *Science* في شهر يوليو ٢٠٠٧. ويقول كريس باباجورجيو من إدارة البحوث في صندوق النقد الدولي إن الكثير من خبراء الاقتصاد يعتبرون مفهوم التعقّد أهم إسهاماته في مجال اقتصاديات التنمية.

ويقول هاوسمن على موقعه الإلكتروني إن "السرواء إنتاج أشياء معقدة لا يكمن في وجود أناس أكثر ذكاء، وإنما أناس كثيرون يساهمون بما لديهم من دراية فنية متباينة ومتكاملة. والمجتمعات الأغنى تتمتع بدراية فنية جمعية أكبر

"ريكاردو بارع في تتبع الحقائق عن أي اقتصاد، حتى في الحالات التي يتوه فيها الطريق بسبب الدوغما، يسارية كانت أم يمينية."

إبداء رأيه في شؤون بلاده ووضع جدول أعمال بحثي يركز على الوصول بفنزويلا إلى مسار التعافي.

جينات الأداء الفني

ويبدو أن سحر هاوسمن الذي يسود البيئة البحثية في مركز التنمية الدولية ينتقل إلى قاعات الدراسة أيضا. ففي داخل هاوسمن مؤد جيد، مثله في ذلك مثل جميع المعلمين المتمكنين. وللوهلة الأولى، يبدو أن أبناءه الثلاثة قد اختاروا مسارات مختلفة تماما عن مسار أبيهم، فأحدهم يعمل أمين متحف، والآخر كاتب مسرحي، أما الثالث فهو ممثل كوميدى. غير أن الأربعة يشتركون في شيء واحد، ألا وهو موهبة الأداء الفني.

ويتذكر سيباستيان بوستوس، وهو طالب دكتوراه وزميل باحث في مركز التنمية الدولية، كيف كان الطلاب يعربون له عن أسمى آيات التقدير التي يمكن أن يحصل عليها المؤدي البارع، وهي التصفيق الحاد. يقول بوستوس: "قرب نهاية الفصل الدراسي حين يبدأ انسداد الستار على كل شيء، ويبدأ المرء في إدراك مغزى كل ما ناقشناه أثناء الفصل الدراسي، عادة ما كانت المحاضرات تنتهي بمشهد تصفيق الطلاب وهم في سعادة غامرة."

ويتساءل باباجورجيو: أين ستكون وجهته التالية؟ ويضيف أن "ما يجعل ريكاردو مميّزا في مهنته هو أن الناس يتشوقون إلى رؤية ما سيأتي به من جديد هو وفريقه في مركز التنمية الدولية." [FD](#)

كاميلا لوند أندرسن رئيس تحرير مجلة التمويل والتنمية.

وتستخدمها لإنتاج منتجات أكثر تنوعا وتعقداً. ويضيف أن البلدان الفقيرة تستطيع إنتاج "بضع منتجات بسيطة."

وبتسخير موارد هارفارد الهائلة وبالاستعانة بمنهج متعدد التخصصات يستند إلى خلفيته الدراسية في الفيزياء والاقتصاد والسياسة العامة، بالإضافة إلى خبرته المتخصصة في الشبكات وعلوم الكمبيوتر، شرع هاوسمن في رسم السبل التي تمكن المجتمعات من ترسيخ المعرفة الإنتاجية. ونتج عن هذا البحث إصدار أطلس التعقّد الاقتصادي – رسم المسارات نحو الرخاء (*The Atlas of Economic Complexity – Mapping Paths to Prosperity*) الذي نشر في عام ٢٠١١، والذي يحاول قياس كم المعرفة الإنتاجية في كل بلد.

ولم تكن تلك إلا البداية. واليوم، يركز "مختبر قياس النمو" التابع لمركز التنمية الدولية في معظم أعماله على وضع خريطة لتلك الشبكات المعرفية المعقدة. وقد توسع المختبر الذي كان يضم زميلين باحثين في عام ٢٠١١ ليضم ٤٠ زميلا باحثا في عام ٢٠١٧. ويتضمن فريق العمل متخصصين في الرياضيات والفيزياء والاقتصاد، ومبرمجين ومتخصصين في تكنولوجيا المعلومات، ومتخصصين في العرض التصويري المتقدم، وأخصائيين في الاتصالات يساعدون في صيانة مواقع الأطلس المختلفة على شبكة الإنترنت وتطويرها.

وتستخدم هذه الأعمال على نطاق واسع حاليا لتحليل الاقتصادات وتقديم المشورة بشأن السياسات، كما يعمل العديد من البلدان بشكل مباشر مع مركز التنمية الدولية – بما في ذلك حكومات ألبانيا والمكسيك وبنما وسري لانكا.